قراءة في نصوص الجاحظ من خلال البيان والتبيين وأدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري

د. عبد الحميد بوفاس – المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

يشير الجاحظ إلى حقائق مبكّرة حول اتصال اللغة بطبقات المجتمع وكذا المهن والحرف التي يمارسونها ، فلكا طبقة كلام ، كما لكلّ أصحاب حرفة كلام يختص بها .

ومن النصوص التي تبيّن ذلك الارتباط بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ، قول الجاحظ : " وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل والسّخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والخفيف والثقيل، وكلّه عربيّ، وبكل قد تكلّموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم تفاوت . فلِم ذكروا العيّ والبكي والحصر والمفحم والخطل والمسهب ...والمتشدق والمتفيقه والمهماز والثرثار والمكثار والهمّاز؟." [i]

يقسّم الجاحظ كلام الناس إلى طبقات ، ومن دون شك ، فإن تلك الطبقات تختلف في تركيبتها وفي الظروف المحيطة بها ، وفي طريقة تفكيرها وكذا حاجاتها، وعليه فإن الكلام المستعمل سيعبّر عن تلك الاختلافات . فالكلام " يعكس ما ترتكز عليه البنى الاجتماعية من طبقية وتفاوت – فهو بعبارة عصرنا– تحدّده ظروف حياة المجتمع المادية والعلاقات الاجتماعية بين أفراده فهذه العلاقات وتلك الظروف تشكّل الأساس أو البناء التحتي الذي يقوم عليه تعدّد المستويات اللغوية، ويكوّن بمقتضاه بناء فوقيا يدلّ عليه ويؤذن به." [ii]

يقول ابن قتيبة أثناء مفاضلته بين حكم الكتاب وحكم الكلام :" ونستحب له أيضا أن ينزّل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام ..."[iii]

ففي كلا ابن قتيبة إشارة إلى :

- اختلاف طبقات المجتمع وتنوعها بين الرفعة والضَّعَة.

- اختلاف درجات الكلام ونعوته، فمنه الرفيع وما يدل على الرفعة من معاني القوة والجزالة ، ومنه الوضيع وما يتصل به من الخسّة والدناءة والركاكة والضعف.
- ضرورة مراعاة أحوال المخاطبين والسامعين ، وأن يوزّع الكلام على قدر الأفهام .
- الكلام مراتب كما أنّ الناس مراتب.

وإذا نظرنا إلى فلسفة اللغة عند العرب القدماء ، وجدناهم قرنوها بالاستعمال ، محتكمين في ذلك إلى مقولة لكل مقام مقال. وبناء على هذا التصور يرى الجاحظ أن المعنى " ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة . وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.وكذلك اللفظ العامي والخاصيّ . فإن أمكنك أن تبلّغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام ." [iv]

---

[i]– الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين ، نح : درويش جويدي، ج(1)، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت، 2003م، ص95،96.

[ii]– نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ، المكتبة الجامعية الأزريطة ، الإسكندرية،2001 م، ص/184، 185.

[iii]– أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : أدب الكاتب ، مرا : درويش جودي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت، 2004م، ص/24.

[iv]- **الجاحظ** : البيان والتبيين ، 90/1.